الحيـــاة الحيـــوانيـــة الســـيكلوجيـــة

ان الحيوان يلازم الإنسان ملازمة تاريخية نفعية ولذلك كان من جملة الكائنات الـتي جذبت إليها تفكيره، وقد بدأ ذلك التفكير ساذجاً ثم ارتقي إلى مباحث الفلسفة وصـار من أول أغراضه تحديد معاني الغريزة والذكاء.

وتدل أساطير الأولين على أنم كانوا يتصورون أن لكل كائن نفساً كنفس الإنسان غير مفرقين في ذلك بين الإنسان والحيوان والنبات بل والجماد أيضاً، ومن ضمن اعتقادهم أيضاً أن النفوس تنتقل من جسم إلي جسم.

أنتقل ذلك الاعتقاد القديم إلى الفلسفة فتصادفه في الفلسفة الفيثاغورسية حيث تقول أن النفوس يختلف مصيرها بعد الموت تبعاً لما تستحق من الجزاء فمنها ما يحيا حياة مـبرأة عن المادة ومنها ما تستقر في أجسام جديدة إنسانية أو حيوانية لتؤدي ما يفرض عليها من العقوبات، وتدل هذه النظرية على أن النفوس تتساوى في طبيعتها، وتختلف بمحلاتا وهي أجسام إنسانية كانت أو حيوانية، وهذا هو رأي امبيروكليس أيضاً ولكنه يري أن النفوس قد تتقمص النبات أيضاً فنفس النبات عنده من طبيعة النفس الحيوانية والإنسانية.

وأول تمييز بين هذه النفوس نجده عند أنكساجوارس فكان يقول أن العقل يختلف في كميته بين الكائنات المختلفة: الإنسان والحيوان والنبات، وليس في كيفيته.

وجملة القول فالفلسفة قبل سقراط تميل إلى اعتبار النفوس الإنـسانية والحيوانيـة (والنباتية أحياناً) من طبيعة واحدة ومن ميز بين تلك النفوس من فلاسفة ذلك العهد كان تمييزه عرضياً ينصب على المحل أو الكلم وليس على الجوهر والماهية.

فلما جاء سقراط فرق بين الغريزة وبين العقل فقال أن العناية الإلهية هيئت لنا غرائز طبيعية غير مفكرة فالآباء يميلون لتخليد أنفسهم في أبنائهم والكائنات تتفـادى المـوت وتحرص على الحياة، وهذه العناية تحمي الإنسان والحيوان على الـسواء إلا أن نـصيب الإنسان فيها أوفر وأكمل وقد حيانا الله عقلا هو أكمل العقول لأنه ليس غير الإنسان من يعبد الله ويتنبأ بالغيب ويتوق للعرفان، و قد شبه الإنسان بين الحيوان بالآلهة.

أما أفلاطون فقد قسم النفس البشرية إلى نفس عاقلة ونفس غضبية ونفس شـهوية، واعتبر نفس الحيوان نفساً إنسانية منحطة وكان يجب ـ مسايرة للمنطـق ـ أن يعتـبر النفس النباتية نفساً حيوانية منحطة ولكنه لم يسلم بتلك النتيجة لأنه لم يعتقـد بإمكـان حلول النفس البشرية في النبات: والأصل عنده أن النفوس تـهبط مـن الكواكـب إلى الأجسام فالفاضلة منها تتطهر في هذه الحياة ثم تصعد إلى كوكبها، أما النفوس الضالة التي ينطفئ فيها نور العقل فتتقمص أجساماً مختلفة تناسب جرائرها، قد تحل جسم امرأة وقد تحل جسم الحيوان، فالنفس الحيوانية نفس بشرية مسختها الذنوب.

والنفس عند أرسطوطاليس أصل الحياة، ونفس الحيوان هي النفس الحساسة، وقـد حلل هذه النفس ليعرف ما يميزها عن غيرها من النفوس الإنـسانية والنباتيـة. قـال أن للحيوان حسا، وهذا يستدعى أن يشعر باللذة والألم وهذان يقرنان بالرغبة والرغبة باعث على الحركة، والرغبة يوقظها الإحساس المباشر كما يوقظها الخيال الحسي وهو الـصورة النفسية التي تقترن بالإحساس وتستدعيه أحياناً في أثناء غياب الباعث الخـارجي وهـي لذلك تكون عندما يصح أن نسميه تجاوزاً وهي لذلك تكون عنده ما يـصح أن نـسميه تجاوزاً بالذاكرة وهو غير ذاكرة الإنسان التي تتميز بالإرادة والجهـد تبذلـه في سـبيل الاستذكار ـ يوجد ذلك لدى الحيوان ولكن الذي يحرم منه كلية هـو العقـل والإرادة الحرة ـ لكنه ميز بين الغريزة والعقل الحيواني ففي حالة الغريزة تتحد ويتداخل الإحساس والرغبة والحركة فلا تختلف هنا عن النبات أما في الحيوانات العليا الاختيار يلعب دورا في حياتا كذلك الخيال الحسي والذاكرة مما يحاكيه بالإنسان.

فلما كانت الرواقية أنكرت وجود أي عقل للحيوان وجعلت من الغريـزة وسـيلة الطبيعة في تحقيق غاياتا الحيوية لدي الحيوان والنبات، فالطبيعة تتحكم في الحيوان والنبات وترسم لها غاية واحدة هي المحافظة على الحياة ونشر النسل، نعم قد تختلف الحياة النباتيـة عن الحياة الحيوانية ولكنه اختلاف لا يغير من جوهر المسألة شيئا فالنبـات لا يـدخل في حياته الإحساس ولا الميل، والطبيعة تب الحيوان الإحساس والميـل لتقدمـه في النمـو درجات عن النبات ولكن هذه المواهب الحيوانية ما تزال خاضعة لغايات الطبيعة خادمـة

لها، و بالرغم من تميز الحيوان بالإحساس والميل فتصرفاته عمياء لا فكر فيها ولا تقـدير، وهي واحدة عند جميع أفراده لا تعرف الحزم ولا التردد.

ورد على رأي الرواقيين بلوتارك قائلاً أنه لا معني لقولنا أن ليس للحيـوان عقـلا، فالعقل كأمور كثيرة درجات وللحيوان منه نصيب، أما إنكار العقل للحيوان لأنه لا يبلغ عنده المدى الذي يبلغه عند الإنسان فمثل إنكار قوه السمع والبصر عند الإنسان لأنـه لا يبلغ با ما يبلغ بعض الحيوان، والحيوان قابل للتعلم، على استعداد موفور للتقدم، موهب بالحس، وهذا يستدعى أن يكون له خيال حسي وذاكرة من نوع ما، وتحت تأثير دوافع الحب والبغض يستطيع أن يقدر للمستقبل مما يشبع هذه الدوافع، وهذا الرأي يعد رجعة إلى الآراء القديمة تتلوه رجعة أخرى نجدها في الأفلاطونية الحديثة التي أخـذت بنظريـة تقمص الأرواح والنفس العامة للوجود. فالنفوس جميعاً من طبيعة واحدة، وهي تنفـصل عن تلك النفس العامة وتسقط في أجسام مختلفة ما بين حيوان وأنسان، حكيم وسفيه، ثم بعد أن تقضي فترة الحياة الدنيا تؤوب إلى النفس العامة السكونية، والنفوس الحيوانية هي نفوس فقدت ما يشع فيها من نور العقل فبقي لها الحس والشهوات.

وبعد انتشار الديانة المسيحية اشتهر قوم من دعامتها مثل ثاتين وارنوب ولاكتـنس برأي جديد وهو أن المسيحي فقط يتميز عن الحيوان وغيره لا يختلف عن الحيوان في شيء إلا في عرض من الأعراض هو اللغة، أما القـديس أوغـسطين فقـد رجـع إلى رأي أرسطوطاليس من أن الإنسان يشترك مع النبات في الحياة ومع الحيـوان في الإحـساس ويختص دونا بالعقل، والحيوان له نفس مادام يسلك السلوك الذي يعود عليـه بـالخير والفائدة وهو يتذكر ويتخيل ويحلم، ولكن لا دخل للعقل في حياته.

ورأي أرسطو هذا هو الذي ساد في القرون الوسطى دون رأي دعـاة المـسيحية، ويجدر بنا هنا أن نذكر رأي القديس توماس عن النفس الحيوانية فقد رأي أنـا تـشمل الخيال والحواس والتقدير والذاكرة فماذا يعني بالتقدير؟ يقول أن الطير لا يجمع القش حباً في جمالها ولكن ليبني منها عشه، فها هنا غاية لا تدرك بالإحساس، يـدركها بتقـديره، وهو لا يقدر بعقله وإنما بغريزة تصنع له ما يصنع العقل للأنسان.

ثم جاءت النهضة الأوربية وثارت ثورة عنيفة على المدرسين وآرائهم، غلبت عليها نزعتان فكريتان حب للطبيعة وحماسة للحياة، فبرونو يقول أن كل شيء حـي وكـل الموجودات ما بين الكواكب في السماء والأحجار على الأرض تحس على نحـو مـا وأن خفي عنا، فالحيوان لا يختلف عن الإنسان إلا في الدرجة وغريزته التي ترعاه صورة أخرى من الذكاء البشري. وقد غالي مونتى في ذلك مغالاة حتى مجد غريزة الحيوان وآثرها على العقل البشري ! فللحيوان بدائع عجيبة كبدائع العقل البشري، والمصنوعات الباهرة تدل على سمو الصانع، وكلما سما المصنوع وجب أن يكون الصانع اسمي وأجل والحيـوان في الكثير من عمله وفنه يتفوق علينا في الإتقان والصنعة فلأي سبب يقال أنه يساق إلى أفعاله بقوة طبيعية قاهرة؟ فالغريزة ليست إلا كلمة في الأذهان والحق أن الحيوان يفكر ويقـارن ويستنتج ويتفوق علينا في كل ذلك، فأن أصر البعض على نسبة أفعاله إلى الطبيعة القاهرة فأنم يريدون في تمجيده ماداموا يعتقدون أن الطبيعة تحنو عليه بحبها وتحوطـه بعنايتـها وتصنع له من غير أن تكلفه أقل عناء ما نعجز دونه بطويل تفكيرنا وعميق تأملنا، وهـذا قضاء على الغريزة بتوحيدها بالعقل.

وقد قضي عليها ديكارت أيضاً ولكن بتحليلها إلى حركات أتوماتيكية، فالحيوان لا عقل له لأنه لا يستطيع الكلام وأقل عقل يجعل الكلام مستطاعاً وأعماله لا تدل على عقل فأنه وأن كان يبدي مهارة فائقة في صناعته إلا أنه لا حول لـه في جميـع الـصناعات الأخرى.

إذا فما الحيوان ؟ ما هو إلا اله متقنة الصنع، وعمل عددها هو الذي يـصنع مـا يبهرنا، وقد استكثر الحس على الحيوان، ذلك أنه يفضل تماماً بـين الفكـر والمـادة في فلسفته، والحس عنده من لواحق الفكر، فلو كان للحيوان حس لكان له فكر و لكـان من الخالدين، وقد أنتشر ذلك الرأي بين مفكري القرن السادس عشر مثـل باسـكال ونيكول وأنولد فعندهم أن الحيوان لا يخاف ولا يتألم ولا يرغب بل يفعل كـل شـيء مدفوعاً بيد الطبيعة !

وبوسي يحاول التوفيق بين الحسيين والآليين فيقول أن الحيوان آلة إذا أثـرت فيهـا عوامل خارجية تصرف تصرفاً من غير إرادة يرد به على تأثير تلك العوامل ولكن الطبيعة

طبعت فريقاً من العوامل المؤثرة باللذة وفريقاً بالألم ومن هنا صحب الحس أفعال الحيوان من غير أن يكون علة فيها.

أما ليبنتز فقد رفض هذا الفصل بين الإنسان والحيوان لأن نظريته الميتافيزيقية تتصور أن الوجود من جواهر بسيطة، توجد في أسفلها الجواهر المكونة للجماد وفي أعلاها تلك المكونة للعقل، وهي سلسلة متصلة لا فجوة فيها ولا طفرة، فالجماد والنبـات يتـأثر والحيوان يحس والإنسان يعقل والفرق بين التأثر والحس والعقل فرق في الدرجة والتركيب والقوة وليس فرقاً فاصلاً كذلك الذي أقامه ديكارت بين الفكر والمادة، وعليه فللحيوان نفس حسية وهي عبارة عن التأثرات التي يتلقاها مضافاً إليها ذاكرة تحفظهـا وتربطهـا، فهو موهوب بنوع من العقل ولكنه عقل تجريبي لا تسيره مبادئ عامة ضرورية.

أما كونديلاك فله نظرية طريفة كان لها أكبر التأثير في تفكير كثير من العلماء البارزين في تاريخ الفكر، فهو يري أن كل ما للحيوان لا يأتيه من الطبع والفطـر وإنمـا مـن الاكتساب، وما نسميه بالغريزة هو ثمرة التجربة وهو في الأصل عادة ثمنها القوى الفكرية ولا تظن أن الحيوانات العليا تصنع فنونا المختلفة بدافع غريزة هادية طبيعية ولكنها تأخذ في إتقانا شيئا فشيئا معتمدة على التجربة والتمرين، وكذلك يتعلم الإنـسان الرضـاعة والإبصار وتقدير المسافات.

ولكن ما القول في أن عادات الحيوان راتبة وعلى نسق واحد ؟

وهنا يجيب بأن كل نوع من الحيوان يتوخى غايات واحدة ويجد في جـسمه آلات واحدة فيتوخى سلوكاً متشابا.

والمشاهد يكذب هذا الرأي فالغريزة لا تعلم، وقد حرر العلماء أمثـال لامـارك وسبنسر وداروين في ذلك الرأي. فالغريزة قد تكون عادة فردية وإنما عادة يكتسبها النوع تدريجياً على مر السنين.

والفرض الذي اعتمد عليه جميعهم هو التطور، والتناسب بين الجهـاز العـضوي والغريزة، واتجهوا في غير ذلك إلى اتجاهات مختلفة فقال لامارك أن الغريزة أصلها عـادة موروثة، وهذه العادة تنشأ تبعاً لتفاعل الجهاز العضوي بالوسط مما يكون مـن نتيجتـه استعمال أعضاء بكثرة مما يدعو لنموها وإهمال أخرى مما يحكم عليها بالضمور. والحيوان

يتوارث الجهاز العضوي في صورته النهائية بعد نمو ما نما وضمور ما ضمر وكلما تغيرت الظروف اختلفت العادات وتغيرت الأجهزة العضوية وتوورثت بالعادات الجديـدة الـتي تضحي من عداد الغرائز الموروثة.

وقد أخذ سبنسر بذا الفرض وفسر الغريزة بالعادات الموروثة كما فعل لامارك، ولم يجد اختلافاً أساسياً بين الغريزة والذكاء، ففي حالة الغريزة تكون الحياة بسيطة والمؤثرات فيها محدودة، فتأتي الاستجابات بسيطة محدودة وبالتكرار تصير أتوماتيكية، و في حالـة الذكاء تتعقد حياة الكائن وتتنوع فيها المؤثرات والاستجابات بحال يتعذر معها وجـود التكرار المتوالي الذي يخلق الأتوماتيكية فيكون لدي الكائن استعداد عام للاستجابات تبعاً للظروف المختلفة وهو الذكاء.

ولكن داروين لا يقتنع بكفاية الوارثة والعادة في تفسير الغريزة، فهنالك من الغرائز ـ مثل غريزة النحلة ـ ما تبدع كل عجيب دقيق لا تستطيع العادة مهما كانت قوتا أن تصنعه وتكونه، أما الذي يفسر الغريزة حقيقة فهو ما يفـسر تكـوين الأنـواع وهـو الاختلاف الفردي وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعي، فالأفراد جميعاً تتصارع من أجـل الحياة ولا يفوز بالحياة الا من استكمل العدة لها، وما الغريزة في الأصل إلا ميزة أوجـدتا المصادفة في الكائن، ويدل الحال على فائدتا، فيحرص عليها الكائن ومن على شـاكلته وتنتشر بالوارثة. وعليه فيكون مرجع كل ما في الحياة من تناسق ونظام بين استعداد الحي وظروف البيئة المصادفة!!

هذه التفسيرات علمية، فالعلم يحاول أن يهتدي إلى تفسير ميكانيكي للطبيعة لذلك هو يرحب بنظرية التطور لأنا لا تفرض أي فرض غائى، و لكن الفلاسـفة لم يقنعـوا بذلك فادخلوا العلل الغائية، ففلسفة هيجل وشوبنهور وهارتمـان ليـست كالفلـسفة التجريبية تفسر الغريزة بميكانيكية الطبيعة العمياء وليست كذلك كالفلـسفة الروحيـة تفسرها بأعلى الملكات وهي تري أن الغريزة تتبع غاية من غير أن تشعر با وهي تشبه في ذلك حركة الطبيعة نفسها.

ومن ذلك كله يتبين الاتضاد مطلق بين الذكاء والغريزة وهما قد يلتقيان كما هـو الحال في الإنسان. الا أن التجريبيين يرون في الغريزة حركة عكسية ميكانيكية ويعتـبرون

العقل نفسه صورة مركبة منها، وأما عند الميتافيزيقيين فالغريزة فكرة تطورت إلى الصورة الميكانيكية واختفت خلف موضوعها وقد تغير اتجاه البحث في العصر الحديث وتجـددت طرق السيكلوجية الحيوانية وتنوعت أغراضها، فليس المهم الآن معرفة أصل الغريزة وليس المنهج أن ندرس الحيوان قياساً على الإنسان، والسبيل المـضمون أن نلاحـظ الحيـوان ملاحظة موضوعية مفسرين كل ظاهرة بالغرائز، حذرين من أن نرجع ظاهرة ما إلى ملكة عالية، متدرجين في الدراسة من أحط أنواع الحيوان، فعند لوب أن سـلوك الحيـوان تختلف أنواعه باختلاف أسبابه فمنه ما يسمي (Tropisms) وهي حركات بسيطة جـداً تنشأ من عوامل طبيعية أو كيماوية أي أنا ليست فسيولوجية، ويحدثها تأثير القلويات في تركيب جسم الحيوان.

ولكن من سلوك الحيوان ما يرجع لغير هذه الحركات، وهنا يستطرد لوب قائلاً أن الحيوان موهوب بما يسميه فرق الحساسية، فهو قد يجذب إلى قوة طبيعية كمصدر ضوء فإذا تغيرت درجة النور غير الحيوان اتجاهه ثم يعـود إلى طريقـة الأول بعـد ذبـذبات كالبندول، فالسبب في هذا التغير هو تغير إحساسه أو الفرق بين إحساسه الأول والثاني.

ولوب يضيف إلى الحيوان غير ذلك أفكارا وهي تتكون من ترابط الاحساسات، و تجعل للحيوان ما يصح أن نسميه ذاكر، ة وهي من أسباب وبواعث الحركة الحيوانية.

وقد أثار رأي لوب هذا نقديين متضادين: نقد يبث وهو ينفي على الحيوان أي حياة نفسية فلا يسلم بوجود أحساسات له ولا أفكار.

ونقد جننجر وهو لا يسلم بوجود التروبيزم المذكورة أنفا لأن الحيوان عنده لا يأتي حركات بسيطة كهذه فهو يتحرك بقوة ذاتية لا تخلو من شعور باللذة والألم فهو يرجـع التروبيزم إلى الحركات العكسية.(reflexes)

وهذه الحركات العكسية عبارة عن تيجات مصحوبة بحركات ففيها انفعال عصبي وحركة لا تختلف عما سميناه " تروبيزم " وقد أجري باولو تجارب كثيرة علـى الحيـوان زادت ثروة معرفتنا عن الحركات العكسية وهدت إلى تصور نشأة الغريزة.

ويوجد كثير من العلماء يرجعون الغرائز إلى الحركات العكسية، وهم لا يرون فيها تصرفات كاملة تحفظ الحيوان وتديه على وجهه لا يدانيه كمال فقد تقتـل الحـشرات

نفسها كما برهن مارشال، وهذا لم يمنع وجو رأي يفسر الغريزة تفسيرا غائباً كما فعـل بعض الفلاسفة وهو رأي برجسون، وبرجسون يرفض رأي الذين يحددون للحياة غايـة ويظنون أنا عرفت من قبل ومهدت لتحقيقها الوسائل، فأصل الحياة وثبة خالقـة هـي أصل التطور، والغريزة من وسائل هذه الوثبة التي لجأت إليها.

والذكاء كذلك من الوسائل التي أبدعتها قوة المياه لتحقيق أغراضها، وهـو غـير الغريزة، وأساليبه غير أساليبه، ا فبينما يستعمل هو الآلات تـستعمل هـي الأعـضاء وتكونا.

وخلاصة القول أن تقدم السيكلوجية يرجع في الكثير إلى مناهجه التجريبيـة الـتي تدرس سلوكه دراسة موضوعية، وهي تنحصر في إجراء اختبارات مختلفة على الحيـوان. كيف يهتدي إلى طريق معلوم بين شباك من طرق، كيف يذلل صعاباً مختلفـة، كيـف يمكن أن يفتح مزلاجا، وهكذا ويتعرفون بذلك عقلية الحيوان، ويقدرون ذكاءه وكيفية تحصيله للعادات.

ولكن يجب ألا نغفل عن الصعوبات التي تعترض هذه المناهج، فالتعبير عسير فيهـا وقلما يتضح إقناعاً تاماً، ثم أنا تقف حائرة أمام بعض الأسئلة لا تستطيع جوابـاً مثـال ذلك: ما الباعث الذي يجعل الحيوان يؤثر بعض السلوك على بعض ؟ ولماذا يميل إلى تكرار النافع منها الذي يؤدي إلى الغرض مع أنه لا يعقل ما المنفعة ؟

فالحق أن هذه الطرق التجريبية قد أفادتنا جليل الفائدة في معرفة تفاصيل الحياة الحيوانية، ولكن هذا لم يحل لنا المسألة الفلسفية عن أصل الغريزة وطبيعتها، ولم يغن عن الفروض الغائبة التي بقيت كحل نائي يرجع إليه المفكر إذا لجأت به الحيرة كما فعل برجسون.